

## نقد الآليات الإجرائية لنظرية القراءة عند

" هانس روبرت ياوس "

د . عائشة جمعه الشامسي (\*)

### تمهيد:

يحتل القارئ مكانة مرموقة في العملية الإبداعية الأدبية وفي مدارات سيرورتها، إلى درجة يصعب معها إقصاؤه بشكل جذري منها، فقد مارس ذلك القارئ الحاسم سلطة لا يمكن الاستهانة بها، في الفصل في كثير من القضايا الأدبية عبر مختلف الحقب التاريخية، كما كان له التأثير الخفي والواضح في عناصرها الجمالية ، وفي حكوماتها ومساراتها .

إن القراءة " تعرف على أنها اللحظة الذي تتكون فيها دلالات ومعاني نص معين من طرف الجمهور"<sup>(١)</sup> الذي يمثل الحلقة الثانية في الدورة الأدبية القرائية، بعد حلقة أقوى يتصدرها القارئ المسيطر الذي أشرنا إليه سلفاً، فالجمهور في الغالب إنما يعبر عن الذوق السائد، وهو عنصر مؤثر غير أنه متقلب ومنقاد ومزاجي، يستعصي علينا استكناه عمقه وهواجسه وأهوائه، التي لا نستبعد أنها رد فعل منعكس لإرادة النص.

من جانبه "يحدد المنظر الألماني كلاين Ulrich Klein مصطلح التلقي في معجم علم الآداب على أنه استقبال أدبي يتم وفق أربعة عناصر، هي: إعادة الإنتاج، التكييف، الاستيعاب، التقييم النقدي"<sup>(٢)</sup> .

(\*) جامعة محمد بن زايد للعلوم الإنسانية.

(١) Rémy Rieffel. Sociologie des médias. Ellipses, paris. ٢٠٠١. p ١٣.

(٢) ابن نكاع بن دهبية، مجلة كتابات معاصرة، لبنان، ع ٦٣، مج ١٦، ٢٠٠٧، ص ١٢٥.

## نقد الآليات الإجرائية

إن النص الأدبي وإن انفقنا - فرضا - على أنه قابل لأن يعاد إنتاجه، فهو قيمة تأثيرية تتمكن من ممارسة توجيهاتها الجمالية والفكرية حتى من خارجها، فالتكليف الذي يعملها القارئ الحاذق وغيره على النص إنما يتم تحت رعاية وتوجيه من النص ذاته، كيف لا وهو منطلق المعنى، إن القارئ إذن هو ظلال النص الأكثر سطوعا، وما استيعابه الجمالي للنص - في رأينا - سوى هبة نصية وانعكاس طبيعي لواحدة من العطاءات القرائية الوفيرة التي يمنحها النص بإتقان ودقة لقرائه بحسب مستويات معارفهم وثقافتهم وانفتاحاتهم وترقياتهم.

كما أن التقييم النصي المتصل بالقارئ في إجماله، ليس غير ما يفرضه جملة النصوص الكبرى في تفردا وتعاقبها من تحيزات جمالية، هذا بغض الطرف عما قد يفسده ذلك الناقد الشارد عن إطار مخطط ما تقترحه جماليات النص، والمتحمس لصياغة التواءات تشرد بالنص عن صلب ما هو عليه، والتي يسيء كثير من القراء بدورهم إلى المعلوم من مقوماته المضبوطة.

إن ما عولنا عليه حقا، وما دفعنا إلى نقد المعايير الإجرائية للقراءة عند ياوس هو ما يقترن بما يراه بيير بورديو " حول نقائص نظرية القراءة، وما تُقره من تأويل، وفي كونها لا تأخذ بعين الاعتبار كل ما يرتبط بالسياق التاريخي والاجتماعي لإنتاج النص"<sup>(١)</sup> إذ إنها تقوم بإقصائه بشكل متطرف، مانحة مطلق الحرية للقارئ على تفاوت مؤهلاته القرائية لإنجاز قراءته، في منأى كلي عن الإكراهات السياقية ومفرزاتها الجمالية النابعة من " لذة التاريخ" بوصفه مصدرا زاخرا للإمتاع الفانتازي والإنساني بالإجمال.

إنه لا يخفى على الناقد التاريخي، أن أي قراءة لا تحتفي ابتداءً بالسياقين التاريخي والاجتماعي والمبتغية تحفيز القارئ، والرامية إلى إفراغ النصوص من محتواها البرزني، هي قراءة ذاتية الجمالية، أي أنها " قراءة من أجل القراءة "

(١) Pierre Bourdieu, Les règles de l'art (France: Seuil, ١٩٩٨), ٥٠١

د. عائشة جمعه الشامسي

لاغير، وإنما وإن كان يحسب لها محاولتها المبالغ فيها -بإطلاق العنان للقراء دون استبعاد أي طرف منهم، وعدم إلزامهم بعناء الاطلاع على الملابس التاريخية- غير أنها تجعل النص الأدبي المركب- والذي يتعاضد في عمق بنياته الداخلية مع جماليات التاريخي الكامن فيه، خاليا من كل طاقة خارجية ومن كل شحنات واعية يؤثت بها هيكلية لغته وأسلوبه وجمالياته الجوانية.

إننا هنا، لسنا أبدأ، ولا ينبغي لنا، أن نصطف ضد تلك القراءة الجمالية المتحررة الطموحة والمطوحة بعيدا عن معاضل التاريخي والاجتماعي، إلا أننا نرى أنها تفضي في الغالب إلى صناعة قارئ غير مثقف، يجتزئ العملية الأدبية ويختزلها في مجال تطلعاته، أو على أقل تقدير، إنها تشجع قارئها على الخمول أمام الجماليات الكامنة في عمق التاريخانية.

لقد تشكلت نظرية القراءة إذن " في سياق ينأى عن التاريخ، ونشأت في سياق إبدال معرفي جديد لا عهد للبشرية به مثل الحكم الذاتي والإعلاميات، في إطار منافسة إقليمية؛ إنها نظرية المنهزم الذي يحلم بالنهوض وتفادي العوائق التي أودت به إلى الحضيض لتحقيق الذات"<sup>(١)</sup>. هكذا يعلن محمد مفتاح، غير أننا لا نرى رأيه الأخير هذا، فلئن كانت نظرية القراءة قد قامت بإبعاد السياق التاريخي عن مجال اشتغالها، إلا أننا لن نجرؤ على وصمها بالنظرية الانهزامية، فإن ما يشفع لها هو أنها قد أنصتت للقارئ وحاولت استقصاء تاريخ من القراءات، وهذا في ذاته معبرٌ عن روح قرائية، ستمكنا بلا ريب من استقصاء تاريخ مختلف لنزعة قرائية ذاتية لاتاريخانية، وسيتضح لنا ذلك في خضم ما

(١) ينظر: محمد مفتاح : من أجل تلق نسقي، أعمال ندوة : نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: ٢٤، الرباط، ص، ص: ٤٣-٤٤.

## نقد الآليات الإجرائية

سنناقشه في ما يأتي، من الآليات الإجرائية لنظرية القراءة عند هانس روبرت ياوس".

### ١- أفق الانتظار :

يقيم القارئ علاقته بالنص وفق مسار تقتضيه عملية قرائية هدفها تحصيل المتعة والدهشة، وهي عملية وثيقة الصلة برغبته في تمكين النص من اختراق حدوده المعرفية والذوقية، بغية اقتحام تخوم المحصلات الذوقية السابقة بأخرى تتجاوزها جدة وتأثيرا، إن القارئ هنا يكون في أتم الجاهزية لحشد عدته القرائية لمقابلة النص الممتلئ هو الآخر بكامل عرامته التي تسعى إلى وضع القارئ في حالة صدمة أمام ما يقدمه له من مقدّرات ذوقية.

يشير ياوس في هذا المعطى إلى أن القيمة الجمالية للأعمال الأدبية إنما يكمن جوهرها في ربط تلك الوشائج التي تقوم بين القارئ وأفق توقّعه إزاء النص ذلك أن "الأعمال الأدبية الجيدة هي وحدها القادرة على جعل أفق انتظار قرائها يصاب بالخيبة، أما الأعمال البسيطة فهي تلك التي تكون متوقعة القيمة والجمالية، أي أن الأعمال الجيدة هي التي تخيب آفاق القارئ"<sup>(١)</sup> إن القارئ إذن وحسب وجهة نظر ياوس يقترب وعلى الدوام من النص معتبرا إياه الوعد الجمالي الأسمى، فالقارئ وفق هذا المفهوم هو الذي يعول على النص، وليس النص الذي يعول على القارئ، أي أن القارئ ومهما كان متوقفا ووافر الاطلاع فهو ينتظر من النص أن يحقق له قدرا إضافيا من معرفة المتعة التي لم يألفها من قبل.

(١) ينظر: روبرت هولب : نظرية التلقي مقدمة نقدية، عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية،

القاهرة ، ط ١ ، ٢٠٠٠ ، ص ٦٧ .

د. عائشة جمعه الشامسي

إن هذا الطرح يقدم جزءا بالغ الأهمية للعملية القرائية ولا ريب، ولكن ماذا عن ذلك القارئ الذي يحوز تعريفا خاصا للنص الجيد، ساعيا إلى العثور عليه انكاء على تعريفاته المسبقة.

إن كثير من القراء لَيُنشُدون النص الذي يطابق آفاق تطلعاتهم الذوقية؛ لأن هذا التشاكل لن يكون مطلقا في الغالب، غير أن هناك جمهورا واسعا من القراء ممن يريدون سَوق النص عبر مسار مستويات ورغبات وأهواءٍ تخصهم، وإن اقتضى بهم الأمر تحوير آفاقه واتجاهاته.

لا مرية أن النص الذي يتسم بالمرونة سالفة الذكر، في حيازته على البنية الجمالية التي تمكن القارئ من تطويعه هو نص قرائي بامتياز، فهو نص زبئقي الأفق، لا يمكن الإمساك بآخره.

إنه لا يسعنا في هذا المجرى أن نتغافل عن القارئ المتفوق الذي يكون النص على مقياس تطلعاته المسبقة والتي هي بمنزلة ما يسميه يابوس بالخيبة والصدمة، إن الخيبة هنا تصير رضى بعينه، كما تصير الصدمة مجرد تلبية رغبة مسبقة عالية القيمة.

لقد ذهب يابوس إلى الادعاء بأن " الأثر الأدبي يتجه إلى قارئ مدرك تعود على التعامل مع الآثار الجمالية، وتكيف مع التقاليد التعبيرية فيها، فكان أفق الانتظار عنده يتجسم في تلك العلامات: الدعوات والإشارات التي تفترض استعدادا مسبقا لدى الجمهور لتلقي الأثر"<sup>(١)</sup> وإن هذا الادعاء صحيح إلى حد ما، إذ إنه يعرض حالات خاصة متعلقة بقارئ نموذجي، لا يطمح إلى إنجاز قراءة إبداعية تستبق ما يمكن للنص اكتشافه داخل العوالم القصية للإبداع، إنه

(١) ينظر محمد بلوحي : جمالية التلقي عند مدرسة كونستانس الألمانية : جهود يابوس وآيزر،

مجلة عمان، ع ١١٣، الأردن، تشرين الثاني، ص ٨٢.

## نقد الآليات الإجرائية

القارئ الذي لا تتعدى مهمته الاستقبال والانفعال، إنما هنا للأسف نتناسى تلك الملكة الإبداعية التجديدية الفارقة التي يحوزها المؤلف قبل إبداعه لنصه، والتي لا يمكننا أن نجزم أن القارئ لا يمتلكها مبدئياً ضمن طاقته القرائية المبدعة، هل بمقدورنا أن ننفي تمتع بعض القراء بالمدارك الذوقية المسبقة، وكذا الأذواق العالية المسبقة التي تدهم بها النصوص من بعد، إن معظم القراء المتفوقين ليقدمون في معرض تشوفاتهم للنصوص ضمن آفاق انتظاراتهم جملة من التصورات والأبعاد الجمالية النصية التي لم يعرفها المؤلفون من قبل ولم تخطر ببالهم، وهؤلاء هم الذين يشيدون صرح الخيبات والصدمات الجمالية لدى المؤلفين وليس العكس.

إن " مفهوم أفق الانتظار يعد أهم ما تحويه نظرية ياوس الجديدة، فهو الأداة المنهجية التي ستمكّن هذه النظرية من توضيح رؤيتها القائمة على فهم الظاهرة الأدبية في أبعادها الوظيفية والجمالية، من خلال سيرورة تلقّيها المتوالية، شكلاً موضوعياً ملموساً<sup>(١)</sup> .

إن هذا لمهم حقا، غير أن سيرورة التلقي في نظرنا لا تقوم اعتماداً على الالتماس الدائم واللامتناهي في تحصيل صدمات السعادة القرائية فحسب، إذ إنه عليها أن تكتشف أولاً ما يملكه القارئ من كفاءات قرائية تتمثل في تلك التطلعات الخفية نقصد الطاقات القرائية الكامنة لديه، والذي هو في حاجة وقبل كل شيء إلى الوقوف عليها ومواجهتها من خلال اكتشافها من الخارج بواسطة النصوص الانعكاسية أي تلك النصوص التي تعكس الطاقات الجمالية الكامنة الداخلية للقراء، إنما نعي هنا ما نقوله، فالقارئ وفي هذه الحالة لن يصاب بالصدمة الجمالية- لمعرفته بأن النص إنما يقوم باستخراج معارفه وقدراته ومهاراته عن

(١) ينظر: عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأول إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في

النظريات الغربية الحديثة، منشورات الاختلاف، ناشرون، الجزائر، لبنان، ط١، ٢٠٠٧،

ص١٦٢.

د. عائشة جمعه الشامسي

طريق صياغتها بطريقته لا غير، وإنما سيصاب بتلك الدهشة المنبثقة عن اكتشاف ذاته المبدعة الخالصة.

إن أفق الانتظار لدى ياوس هو ما ينقله النص معه عبر "تشكلاته اللغوية وبنيته السطحية وأنظمتها الدلالية والإشارية وأفقه، هو عدة القارئ المعرفية والخبرانية التي شكلتها سلسلة لقاءاته مع النصوص السابقة وكذا معرفته بقواعد الجنس الذي ينتمي إليه العمل"<sup>(١)</sup> مبدئياً يمكننا بسط الشق الأول من هذا الطرح بالتلميح إلى ما يزدحم به النص من قيم فنية مختلفة تصبو إلى تشكيل القدر الأكبر الممكن من المنافذ التي يتسلل من خلالها القارئ للعبور إلى الآفاق الأرحب للنص، أما الشق الثاني وهو الأهم حسب ياوس والذي تتضمنه هذه المقالة فمختص بخبرات القارئ المشكّلة من رواسب قراءاته السابقة فضلاً عن تمييزه بين الأجناس الأدبية، في حين أن الحصيعة القرائية في نظرنا ليست محصورة بخبرة الوقوف على الأعمال الأدبية وعلى غزارة ذلك، بقدر ماهي ذات ارتباط بالقدرة على صياغة المعايير السامية للجنس الأدبي وهذا مناط بملكة قرائية خالصة قد تكون منقطعة الصلة مع ماهية النص ذاته، لشرح هذا يمكننا القول وبكل إيجاز إن أفق الانتظار كقيمة وباعتباره ذا ميزات مجهولة مبدئياً، ينتظر القارئ تحصيلها من نص مجهول، هو مجموعة من المعايير والضوابط المجردة المتفوقة التي ينتظر القارئ تحققها، وليس أبداً وقوفه أمام ما هو غريب عنه منها.

(١) ينظر: نظرية التلقي النقدية وإجراءاتها التطبيقية في النقد العربي المعاصر، رسالة

ماجستير مخطوط، جامعة الحاج لخضر، باتنة الجزائر، ٢٠١٠، ص ٣١.

## نقد الآليات الإجرائية

ولئن كان " مفهوم أفق التوقع عند ياوس يعني " مجموعة التوقعات الأدبية، والثقافية التي يتسلح بها القارئ عن وعي أو غير وعي" (١) فهو منحصر في الغالب في علاقة ثنائية : "نص قارئ" والتي لا تأتي بمفعولها إلا في حالة انتصار النص تنبؤيا على قارئه، فإن القارئ وهو ينجز نصه الخاص داخل النص المقروء، فهو يتحاور مع الآفاق الأبعد للنص ويتسابق معها لبلوغ ما هو أبعد من الأفق نفسه، ولا يكون ذلك متاحا إلا بمحاولته هزيمة النص إبداعيا بمحاولة تجاوز آفقه التي رسمها هذا النص، وإن هذا لا يعني أبدا للقارئ في حين تحقيقه بأن النص الذي هو إزاءه نص عادي، فالنص العادي والبسيط نص لا يرغب القارئ في مقارنته فنيا من أصله.

إن "المقصود من عدم التوقع هو تعطيل قدرة الاستنتاج السريع أي إحداث نوع من أنواع الصدمة عند المتلقي تقطع عليه تسلسل أفكاره باتجاه مرسوم سلفا، وتدفعه إلى تأمل جديد للنص" (٢) إن هذا الطرح ليبدو مقبولا إلى حد كبير، إذا سلمنا بمسلماته طبعاً، فإن الشروع في قراءة أي نص شعري مثلا لأول مرة، ليضع القارئ في لحظة دقيقة وفارقة أمام ذاته الحقيقية الخالصة، وقبالة قدراته ورغباته القرائية المحضة، قبل أن يقحمه في خضم النص، فكل قراءة هي بشكل ما عبارة عن لقاء منفرد وحميمي مع الذات، وما ذلك الارتباك في الحكم على قيمة النصوص الأدبية سوى دليل قوي لدينا على درجة الارتباب الطبيعية التي تلازم جل القراءات المترتبة والمنصفة، والتي لا تقطع بها برداءة النص، ولا بجودته، فالصدمة إذن قد لا تحدث حتى في خضم وقوف القارئ بين أيدي نص

(١) ينظر : ميجان الرويلي، سعد البازغي : دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٣، ص ٢٨٥.

(٢) ينظر: محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص ٤٢.



د. عائشة جمعه الشامسي

ذي قيمة عالية، متصلة بتمتعه بمعايير يحتكم إليها القارئ في تقييم نصوصه، نذكر منها مثلاً جزالة اللغة، قوة الأسلوب، رقة العبارات، وما إلى ذلك مما يألفه القارئ في الغالب، ولا يراه متجاوزاً للمألوف الفني وإن بدا مختلفاً في توليفاته ونسيجه.

إن التأمل الجديد لنص ما، قد يتم عبر سبيل متصل وغير منقطع عبوراً من أفكار النص وجهاً إلى أفكار القارئ ليلبي رغبات مسبقة لديه، ويزيده امتلاءً وقناعة بجدوى مكتسباته الجمالية السابقة، إن التأمل الجديد للنص في الحالة هذه، لا تتجزه الصدمة القرائية، ولا تحفره، إنها تجعله على نقيض ذلك يقع ضحية لاقتراحاته ومدلولاته وتحدياته، فالقارئ الواقع تحت تأثير الصدمة القرائية يسلم كل تأملاته لرغبة النص ولسلطته؛ لأن هذا النص هو مبعث هذه الصدمة، لذلك فإن أي تأمل حقيقي قد يقوم به القارئ لا بد أن ينجر عن حرية خالصة يمارسها بقراءته، أو عن أفعال وردود أفعال تحصل بينه وبين نصه.

يرى ياوس أن "أفق الانتظار هو نظام من المرجعيات المشكلة بصفة موضوعية، وهو كل عمل في اللحظة التاريخية التي يظهر فيها وهو ينشأ من ثلاثة عوامل أساسية هي، التجربة المسبقة التي اكتسبها الجمهور حول الجنس الذي ينتمي إليه النص، وشكل الأعمال السابقة وموضوعياتها التي يفترض معرفتها، والتعارض بين أسلوب اللغة الشعرية واللغة العملية أي بين العالم الخيالي والعالم الواقعي"<sup>(١)</sup>.

إن ياوس هنا يحدد وجرأة يحسد عليها، طبيعة المرجعيات التي تشكل نظام أفق الانتظار لديه، إن القارئ عند ياوس هو قارئ موضوعي، يتسلح بحزمة من الأنماط الذوقية السائدة والرائجة، والتي تبرز كمعايير قيمية لا يمكن تعديها، لتحدد

(١) jauss ; pour une esthétique de la réception , p ٤٩ . b

## نقد الآليات الإجرائية

طبيعة علاقته بالنصوص المستقبلية التي سيقروها، كل ذلك داخل إطار تاريخي مضبوط لا يمكن التخلي عن سيطرته وهيمنته، ولكن ما الذي يبرر إذن ذلك الحضور الطاعني لنصوص أدبية بعينها عبر أزمنة تاريخية مختلفة.

إن انخراط القارئ كإنسان اجتماعي في جاذبية التاريخ باعتباره فناً، وفي براغماتية الانصهار العضوي فيه، لا يعني وعلى الإطلاق أن اللحظة التاريخية الفنية هي صنعة الذات الإنسانية الخالصة وهو حيال نص إبداعي، فقيمة النص داخل الذات القارئة لا يحددها رأي الجماهير في كل مرة، ذلك أن قراءة نص ما هي قضية فردانية وليست ممارسة جماعية مطلقة، بالقدر نفسه الذي هي عليه بحكم أنها قضية تخضع لآراء الجماهير، نعم فبإمكان القارئ المنعزل أن يؤدي قراءة منعزلة تشبهه يقصي فيها عامل التاريخ بشكل يكاد يكون كلياً.

إن أفق الانتظار إذن وحسب ياوس؛ ينشأ عن عوامل ثلاثة، أولها التجربة المسبقة التي اكتسبها الجمهور حول الجنس الذي ينتمي إليه النص، وإننا لسنا في حاجة ماسة إلى التفصيل هنا لندعي أن معرفة حدود أي جنس أدبي ينتمي إليه نص ما، ليست بالمتاحة في الغالب، فهي أشد التباساً من قضية أفق الانتظار ذاته، فالقارئ حتى ذلك العادي، لا يمكنه أن ينظر إلى قيمة نص شعري مثلاً من خلال إطار تجنيسي صارم، فضلاً عن أن مفهوم الشعر في ذاته هو معطى متقلب غير ثابت لدى القراء في مجملهم، من هنا تبرز معضلة فكرة التجربة المسبقة هذه؛ لأنها تتعارض مع قاعدة ثبات نموذج واحد لأفق انتظار خاص، حيث إن صعوبة تحديد مفهوم جنس أدبي ما، هو مما يحول دون صياغة أفق انتظار معلوم.

إن ثاني عامل يحدد أفق الانتظار عند ياوس هو شكل الأعمال السابقة وموضوعاتها التي يُفترض معرفتها.

د. عائشة جمعه الشامسي

لا بد من الإشارة هنا إلى أن صعوبة الحكم على نص ينتمي إلى شكل أدبي مستجد مثلا، ومنطقياً؛ تفوق ودرجات القدرة على الحكم على نص ينتمي إلى نص أدبي معلوم الجنس، غير أن قضية الشكل هذه وإن كانت تبدو ممكنة إلى حد ما إلا أنها مستحيلة الحصر عمليا، وإنما تتكشف كمأزق حقيقي يقف في وجه القارئ، وهذا لا يعني أبدا أن القارئ يقرأ نصه بعيدا عن كل تجربة سابقة؛ بقدر ما يعني بأن قضية القراءة هذه ليست مخولة كلية بعلم النص، وهذا مفاده أن شكل وموضوعاتية الأعمال السابقة هي في أصلها ناشئة عما له تعالق بالقارئ وليس بالنص، لكنها لا تتمظهر داخل محيط القراءة وإنما داخل النص بوصفه علما مستقلا، كما إن القراءة الفعالة والمتذوقة وكذا القراءة العارفة هي خلطة فنية متجاوزة للمعارف والتجارب السابقة، فهي تبتدع منها أنماطا مسبقة كذلك، تتحدى النص لتتسامى معه في نقطة النقاء فنية تتخطى أفق التجارب السابقة وشكل وموضوعاتية الأعمال الأدبية الرائجة.

إن العامل الأخير الذي يحدده ياوس كأساس لأفق الانتظار، هو التعارض بين أسلوب اللغة الشعرية واللغة العملية، أي بين العالم الخيالي والعالم الواقعي، حيث إن هذا التضاد وطبيعته ومستوياته هو ما سيبت في قيمة النص، ولكن بعيدا عن القارئ إذ هو طرف مستقل في عملية التبادل الأدبي، فالنص وبما هو عليه واجهةً للغة شعرية خاصة منزاحة تعدل عن اللغة العملية هو مسألة يمكن دراستها بأدوات نقدية ولسانية لا صلة لها بالقارئ وإنما بالنص بوصفه جهازا لغويا يحتكم إلى آليات أسلوبية موصوفة خاصة، كما أن الفصل بين العالم الخيالي والعالم الواقعي والذي يميزه النص الإبداعي تمييزا دقيقا لتشكيل عناصره، لا يصف حالة نصية خاصة وإنما يضعنا قبالة بوتقة واسعة تحتضن داخلها آفاقا شاسعة ولا متناهية من العوالم الغامضة.

## نقد الآليات الإجرائية

وإنه وإذا ما اتصل الحديث حول القارئ وأسلوب اللغة الشعرية واللغة العملية، فإن ما سيكون هاما وحاسما حقا في هذا المسعى سيكون من محددات القارئ وليس مما يعرضه النص بشكل مباشر، فهو من سيضبط درجة الشعرية وفعالية العالم الخيالي وفق تقديرات قرائية خاصة، أي وبكل بساطة: إن النص هو الذي يمتلك أفق انتظار إزاء القارئ يقوم هذا القارئ بتخييبه أو بإرضائه لا العكس.

### ٢- المسافة الجمالية:

إن المسافة الجمالية هي مفهوم متصل بمفهوم أفق الانتظار لدى ياوس، إنها " ذلك البعد القائم بين ظهور الأثر الأدبي نفسه وأفق انتظاره، ويمكن التعرف على هذه المسافة من خلال استقراء ردود الأفعال على الأثر، أي من تلك الأحكام النقدية التي يطلقونها عليه" (١) فكلما كانت المسافة الجمالية بين أفق الانتظار وبين العمل الأدبي فسيحة واسعة كانت مؤشرا قويا على جودة النص، وكلما ضاقت هذه المسافة كان العمل رديئا بقدر هذا الضيق.

إن تقييم نص من خلال الأحكام التي يصدرها القراء والنقاد، والمتعلقة بين تشوفاتهم الخاصة وتطويحات النص إزاءها، غالبا ما يكون ذا طبيعة ذوقية متصلة باللحظة الفنية، من جهة، ومن جهة أخرى، فإننا بهذا نستبعد تلك الأعمال الأدبية التي جوبهت بالرفض والتجاهل في حقب قرائية خاصة، أو تلك التي يميل إليها المؤلفون دون القراء، أو القراء دون المؤلفين، أو تلك الأعمال الأدبية التي يرفع النقاد من شأنها دون سواهم من أطراف العملية الإبداعية، غير معتمدين في ذلك على المسافة الجمالية بل على خصائص جمالية أخرى، فهناك نصوص أدبية على سبيل المثال لم تكن طبيعتها الإبداعية ضمن لائحة أفق انتظار القراء في زمانها، لذلك كان من الصعب العثور احتكاكا معها على مسافة جمالية

(١) ينظر: حسين الواد، من قراءة النشأة إلى قراءة النقيض، مجلة فصول، الهيئة المصرية

العامة للكتاب، القاهرة، مج ٥، ع ١، سبتمبر ١٩٨٤، ص ١١٨.

د. عائشة جمعه الشامسي

خاصة، نقصد هنا النصوص المنبوذة التي كونت بذاتها وعبر تطوراتها لبنات أفق انتظارها لدى القارئ.

هذا الاستشهاد أعلاه هو مما يعزز فكرة أن مسار النصوص الأدبية محكوم في تطوراتها واختلافاته ( بثلاثية الأفق النص الحكم ) التي تحكم الانزياح الجمالي المقيس برود فعل الجمهور وبأحكام النقاد، نجاح فوري، رفض أو استنكار، استحسان أفراد أو تفهم تدريجي أو مؤجل<sup>(١)</sup> في حين أنه يمكننا الاستشهاد بكثير من النماذج النصية التي استطاعت أن تتطور استعانة بتطور النص في ذاته وكذا اشتغال المؤلفين عليه، بمعزل عن القارئ والجمهور وربما حتى بعيدا عن تدخل النقاد أنفسهم.

إن النصوص تنمو لغويا كذلك، معززة قيمتها استنادا على اللغة المجردة، التي تشد عماد النص كنص، أي تلك المادة النصية الخام التي تجعل من النص نصا، بمنأى عن إقحام الطاقة القرائية والنقدية فيها، إن قبول نص ما قرائيا من قبل الجماهير وعلى المستوى النقدي كذلك لا يمكن أن يكون في رأينا إلا في نطاق مستويات خاصة في النص، وهي المناطق النصية المخصصة والمحجوزة للقراء وللققاد سلفا، يمكننا هنا أن ندلل على هذا، بتلك السلطة التي يمتلكها النص على مؤلفه، إذ إن هذا النص يخضع مثلا لقوانين اللغة والبلاغة والأسلوب، نقصد هنا القوانين الشكلية الكبرى التي لا يمكن الصدام معها، إن هذا النص يطور من قوانينه و من أشكال الحتميات النصية فيه، مُمكِّنا المؤلف هو الآخر من التسلسل

(١) ينظر: هانس روبرت ياوس: جمالية التلقي: من أجل تأويل جديد للنص الأدبي: رشيد بن حدو، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، كلمة للنشر والتوزيع، دار الأمان بيروت، الجزائر، تونس الرابط، ط١، ٢٠١٦ ص: ٥٩.

### نقد الآليات الإجرائية

إليه من داخل معايير تأليفية خاصة، لا يمكن للقارئ ولا للناقد القدرة على تغييرها أو تطويعها وفق إرادة فنية خاصة بهم.

#### ٣- اندماج الأفاق :

نحن نوافق ياوس؛ لأن قراءة عمل أدبي ما من خلال قراءة سابقة لهو مما يعزز حقا أولوية القارئ وسلطته على صياغة النصوص وكذا أسبقيته عليها، هكذا يصير النص الذي يبدعه المؤلف مجرد شبكة متداخلة من آراء قراء تاريخيين فاعلين مختلفين، إن القراءة هنا تتجس عن قراءة سابقة لا عن نص سابق، كما أن النص لا يعدو أن يكون سلسلة من التغييرات التي تطرأ بفعل سطوة رغبة قرائية نافذة.

يعتبر مفهوم اندماج الأفاق "من المفاهيم الأساسية التي تبين التقاطع المفاهيمي بين "ياوس" والمشروع الهيرمينوطيقي لـ "غادامير" الذي أثار هذا المفهوم في كتابه (الحقيقة والمنهج) وسماه بمنطق السؤال والجواب الذي يحصل بين النص وقارئه عبر مختلف الأزمان، ويعبر "ياوس" بهذا المفهوم عن العلاقة القائمة بين الانتظارات التاريخية للأعمال الأدبية والانتظارات المعاصرة التي قد يحصل معها نوع من التجاوب"<sup>(١)</sup> حيث إن الأعمال الأدبية الكبرى تقوم بالإجابة على مجموعة من الأسئلة متعلقة بأفق انتظارات القراء، وهي بذلك تحيل أفق الانتظار الذي كان عبارة عن توقعات متخيلة مبهمة لا أكثر، إلى نماذج أدبية لغوية ناطقة.

(١) أسامة عميرات: نظرية التلقي النقدية وإجراءاتها التطبيقية في النقد العربي المعاصر ، مخطوط ماجستير، كلية الآداب و اللغات ، قسم اللغة العربية ، جامعة الحاج لخضر، باتنة ، ٢٠١١-٢٠١٠، ص٥٣

د. عائشة جمعه الشامسي

إن المؤلف هو الذي يحاور القارئ في نصوصه وليس القارئ هنا غير آفاق انتظاراته، التي تغدو ردود أفعال إزاء النصوص، متجسدة في الإعلاء من شأن نص، أو الحط منه. "حيث لا يمكن للعمل أن يفرض نفسه إلا تنافسا مع أعمال أخرى ناشئة عن أجناس أخرى"<sup>(١)</sup>.

إن هذا قول يابوس هذا، يحمل قدرا لا بأس منه الرجاحة، إذا ما نظرنا إليه بمعزل عن حقيقة أن كثيرا من النصوص الكبرى وغيرها، إنما تستقي قيمتها من كونها نصوصا منعزلة لا تعثر في بنيتها الجمالية على رغبة ولو خفية في أن تكون تنافسية، تبرز علوها الفني بمقارنتها مع نصوص أخرى، إن هناك ولا شك نصوصا لا تقارن بأي حال من الأحوال، يستنتج ذلك القارئ المتفوق، إن هذه النصوص المختلفة حقا، لتقف على مسافة ظاهرة مع باقي النصوص التي تنتمي إلى جنسها، تستعين في تحققها الإبداعي عند القارئ بأن تعفيه من وضعها داخل إطار صراعي مع نصوص أخرى، إنها نصوص مريحة، لا تنافس حتى ذاتها. لنكون أكثر إنصافا مع يابوس علينا أن نقر بأن إدراك القارئ لنص ما على أنه نص متفوق، إنما يهب لهذا القارئ متعة إضافية إزاء قراءته لهذا النص، فله يظن بشكل ما وفي لحظة ما بأنه هو -وباعتباره قارئاً مقتدرا - الذي قام بتغليب هذا النص على نصوص أخرى تنافسه وهو من جعله النص الأسمى والأرقى، هكذا يحدث توهم تفوق القارئ على حساب تفوق النص.

ولكن مثلما هناك قارئ تنافسي فهناك بالموازاة قارئ يختلف معه في ذلك، إذ يحاول في قراءته أن يبعد نصه المقروء من كل حلبة قرائية تنافسية، قد يبدو بأنه ينتمي إليها ويرمي إلى منافستها.

(١) Jauss ; pour une esthétique de la réception p ٧٠ . b٣٩

إن " اندماج الآفاق الفكري والنفسي يمكن أن يتفعل بصورة عفوية داخل متعة التوقعات التي أجاب عنها العمل وداخل التحرر من الأعباء والرتابة اليومية وداخل التماهي الذي قبل به القارئ كما كان مقترحا داخل العمل"<sup>1</sup> لأن النص يقدم نصيبا لا بأس به من الخيارات الذوقية الفكرية والنفسية، والتي يقوم القارئ باقتناء ما يراه مناسباً له منها إذا حدث وتوافقت مع خصوصياته القرائية.

إن ضربة حظ حقيقية أو عبقرية فذة أو تحيز نقدي وقرائي، فقط ما يمكنه حقا أن يجمع جماليا بين قارئ معاصر ونص لا ينتمي إليه تاريخيا.

أما ضربة الحظ فمردها قد يصير إلى توفر نص أو مجموعة من النصوص على قيم جمالية مختلفة ومتنافرة، تبرز كل واحدة منها في العصر القرائي الذي يتبناها جماليا، ليقضي ما سواها مما لا يناسبه، أما العبقرية الفذة في النصوص والتي يجذب كثير من النقاد والقراء الإشادة بها عند مؤلفين خاصين، فتبدو جذابة وجالبة لانتباه الجماهير وغيرهم من متتبعي الأدب، نتيجة التي الرغبة الجامحة عند القراء في اكتشاف العبقرية والخارق وربطه بذواتهم، غير أننا نرى أن فكرة عبقرية النصوص هنا تظهر بأنها متناهية الهشاشة، إذا ما تعقبنا تاريخاً كاملاً من أقوال نجم العباقرة الأفاضل من المؤلفين، هذا التاريخ الذي ما نزال نستبقي منه مجموعة من العباقرة لأسباب يدعي كثيرون بأنها متصلة بتحيزات نقدية وقرائية يمكن لكل من يمتلك حسا نقديا حرا أن يلمحها وهي الخاصة: بالتحيز للتراث، التحيز للايديولوجي، أو التحيز للعرق، وغير ذلك.

إننا هنا لا ننقص من شأن قدرة الأدب على اختراق التاريخ والزمان، وهذا مما لا يليق، لكننا لا يمكن أن نلغي وجود ذلك الجو النقدي والحكمي المريب في كل

(1) Jean Grondin : La Solution De Dilthey Au Problème Du b01  
RelativismeHistorique , Revue ( International De Philosophie ) n° 07 , 2003 . p  
209.



د. عائشة جمعه الشامسي

عصر أدبي، والذي يقوم بتزوير الأحكام القرائية العامة التي تتناول الأعمال الأدبية، وكذا آفاق الانتظارات الخاصة بالقراء أنفسهم، ثم من هؤلاء القراء، فإنهم يصيرون مع الوقت مجموعة قليلة من النقاد الذين ينقلون لنا أخبارا عن القراء، إنهم نقاد يشرع لنا بلا شك أن نرتاب في انتماءاتهم ومحاباتهم وتعصباتهم، والذين ينقلون لنا آراء خاصة بأذواق لا يمكن التعويل على صحتها.

وإننا إذا ما نظرنا إلى أمر " الاحتكاك بتجارب وشهادات الآخرين بخصوص النصّ المقروء والذي تندمج به أفكار القارئ الحاضر بأفكار القارئ الماضي، والذي بفضلها يتمكن المؤرخ الأدبي من الارتحال إلى الآخرين والاستجداء بآرائهم وتطويرها لتخدم أفكارنا" <sup>(١)</sup> فإننا نفهم منه أنه ذلك التطور التاريخي الذي يطرأ في قراءة نص اقترب منه مجموعة مختلفة من القراء، فإن قراءة النص قراءة مباشرة وأولية تختلف عن قراءته من خلال قراءات تاريخية متعاقبة ومتغيرة اشتغلت عليه، لاشك لدينا هنا أن القراءات ستتلاحق إذ تتلاحق، ولعلها تحيد بشكل ما عن النص الأصل، ليكون مجموعة من القراء نصهم الخاص الذي يظهر أنه مشتق من نص واحد، في حين أنه "نص القراء" وليس "نص المؤلف" في شيء.

إننا والحال هذه أمام مأزق حقيقي، يتمثل في جدوى وشرعية القراءات المتعاقبة وفعالها على النص الذي تقرأه، خصوصا إذا ما تعلق الأمر بالشك في تشويه عناصره الثقافية والجمالية بالموازاة، فإن الإنصات إلى القارئ السابق ودحر النص يقدم لنا تاريخا من القراء والأذواق، لا تاريخا من المصنفات الأدبية، لذلك علينا أن نكون حذرين هنا لا سيما إذا كنا قبالة قراءة ثقافية أو تاريخية لنص غير متزامن معنا.

(١) ينظر، سعيد عمري، سعيد خرو، الرواية من منظور نظرية التلقي، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة"، المغرب، ٢٠٠٩، ص ٣٥.

## نقد الآليات الإجرائية

يدعونا هذا كله إلى ضرورة الفصل التام والكلي بين عالم الكتابة وعالم القراءة، فالقراءة التعااقبية هي فعل جمالي آني يعتمد إلى تحصيل أكبر حصة من إرضاء الذات، مع إلغاء عنيف للأصل، وإن هذا كله غير مرفوض إذا ما قُرن بحدود لا تتجاوز الخصوصيات والأهواء.

### ٤ - مواقع اللاتّحديد:

إن التعمية في المعاني النصية هي قيمة لغوية بارزة، فإن كل نص ومهما بدا واضحا، كان صالحا لأن ندعي احتواءه على مناطق من التعمية واللا إفصاح، فالأمر مرهون برغبة طبيعة أو مخاتلة يمكن تحقيقها متى أراد القارئ ذلك، فهناك التعمية والتعامي.

يقول يابوس: " يمكننا أن نقول - إن العناصر غير المحددة في النثر الأدبي وربما في الأدب كله - تمثل العلاقة الأكثر أهمية بين النص والقارئ، إنها المفتاح الذي ينشط القارئ في استخدام فكره لكي يحقق قصد النص، وهذا يعني أنها أساس البنية النصية التي يكون دور القارئ مندمجا بها من قبل" (١).

يمكننا أن نستأنس برأي يابوس هنا كفرضية ذات جدارة ما، فاقترح تمتع النص بالعناصر غير المحددة وإن كان مقبولا كطرح ذي بعد جمالي، فهو تترصده اعتراضات ذات جدارة هي الأخرى، فأكبر رغبة لدى المؤلف بخصوص نصه هي رغبة جموحة في تحقق قصده لدى قارئه، لاشك أن المؤلفين يتفاوتون في هذا، لكن أغلبهم يرغب في نقل مقاصده التي هو عليها باستعمال اللغة داخل النص، لأن هذه الحالة الجمالية الدلالية والفكرية التي تعترى المؤلف إنما هي من أبرز

(١) ينظر: إيناس عياط: استراتيجية التلقي الأدبي في الفكر النقدي المعاصر، رسالة ماجستير

مخطوط، جامعة الجزائر، ٢٠٠٠ - ٢٠٠١، ص ٣٨٦.

د. عائشة جمعه الشامسي

دوافعه للكتابة، ولكن هل يرغب المؤلف حقا في أن يكون نصه غريبا عنه، وهل يريد كذلك أن تكون ملكيته الجمالية للنص محصورة في نقله لحالة جمالية مشوهة ناقصة يكمن جمالها وعبقريتها في تشوهها ونقصها.

يمكننا أن ندعي ولو فرضا - يملؤنا الاقتناع أن النص هو مساحة جمالية متلاحمة ومتراصة تتواشج فيها عناصر مركبة بشكل لا يسبح بترك فراغات أيا كانت، وإن كل ما يظهر أنه كذلك، إنما هو توهم من قارئ يريد السطو على النص كملكية خاصة.

إن النص كما هو عليه، متصلا بمؤلفه، يقدم مبدئيا اقتراحات قرائية ما، تكتسي أهميتها من قدرة المؤلف المبدع على طرح مخطط بعينه لمسار قراءة، لا ينبغي أن يحاد عنه.

غير أن الحياد عن هذا المخطط المقترح، قد يبرز كحق قرائي يخول العبث بمقدرات النص الجمالية الأولية، وهو يبرر ذلك بوجود قراءة ما تلو على جماليات النص .

إن مواضع اللاتحديد " تتمثل في الأفكار الغامضة، وفي الرموز المبهمة، في الألغاز، والإيحاءات الضمنية والمفارقات التي يسعى القارئ أو المتلقي وراء ملئها أو إزاحة غموضها والتباسها بما ادّخره من قدرات معرفية وموسوعية"<sup>(١)</sup> لكن هل هذا متعلق بنصوص ذات طبيعة خاصة، أم أنه ذو ارتباط أصيل بالنصوص كلها على اختلاف مستويات الغموض والإبهام فيها، كما أن ما يبدو أنه عبارة عن فراغات غير محددة داخل النص قد يكون محسوما فيه مسبقا داخل بنية دلالية ضيقة يمكن حصرها بشكل من الأشكال، وباقتراحات دلالية مضبوطة سلفا، أي أنها محددات نصية وليست تحديدات مجهزة لإقحام القارئ المتعسف فيها.

(١) ينظر، سعيد عمري، سعيد خرو، الرواية من منظور نظرية النقي، ص ٣٦.

قائمة المراجع

- ابن نكاح بن دهيبة، مجلة كتابات معاصرة، لبنان، ع ٦٣، مج ١٦، ٢٠٠٧.
- Rémy Rieffel. Sociologie des médias. Ellipses, paris. ٢٠٠١
- Bourdieu, Les règles de l'art (France: Seuil, ١٩٩٨) Pierre
- محمد مفتاح : من أجل تلق نسقي، أعمال ندوة : نظرية التلقي إشكالات وتطبيقات، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم: ٢٤، الرباط.
- روبرت هولب : نظرية التلقي مقدمة نقدية، عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٠.
- محمد بلوحي : جمالية التلقي عند مدرسة كونستانس الألمانية: جهود يابوس وآيزر، مجلة عمان، ع١١٣، الأردن، تشرين الثاني.
- عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأول إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، منشورات الاختلاف، ناشرون، الجزائر، لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.
- أسامة عميرات، نظرية التلقي النقدية وإجراءاتها التطبيقية في النقد العربي المعاصر، رسالة ماجستير مخطوط، جامعة الحاج لخضر، باتنة الجزائر، ٢٠١٠.
- ميجان الرويلي، سعد البازغي : دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٣. ٢٠٠٨.
- محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- حسين الواد ، من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل ، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، مج ٥ ، ع ١ ، سبتمبر ١٩٨٤.

د عائشة جمعه الشامسي

- هانس روبرت يابوس: جمالية التلقي: من أجل تأويل جديد للنص الأدبي: رشيد بن حدو، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، كلمة للنشر والتوزيع، دار الأمان بيروت، الجزائر، تونس الرابط، ط١، ٢٠١٦.
- Jean Grondin : La Solution De Dilthey Au Problème Du b٥١.
- RelativismeHistorique , Revue ( International De Philosophie ) n° ٥٧ , ٢٠٠٣.
- سعيد عمري ، سعيد خرو، الرواية من منظور نظرية التلقي، منشورات مشروع "البحث النقدي ونظرية الترجمة " ، المغرب، ٢٠٠٩.
- إيناس عياط: استراتيجية التلقي الأدبي في الفكر النقدي المعاصر، رسالة ماجستير مخطوط، جامعة الجزائر، ٢٠٠٠- ٢٠٠١.

\* \* \*